كشف الريب عن مفاتيح الغيب (١)

« إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ؛ ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ؟ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؟ »

أخرج ابن المنذر عن عكرمة « أن رجلا يقال له الوارث بن عمر جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد، متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية » . وذكر نحوه محى السنة البغوى، والواحدى، والثعلبي . كذا فى روح المعانى . وقد ذكره ابن كثير نحوه عن ابن نجيح عن مجاهد، ومثله عن ابن جرير رحمه الله .

فدلت الآية على اختصاصه سبحانه وتعالى بعلم الأشياء الخمس، أعنى : وقت قيام الساعة بالتعيين ، ونزول الغيث كيفاً وكماً وزماناً ومكاناً ، وتعيين ما فى الأرحام ذكراً وأنثى ، وما يكسب الإنسان فى المستقبل ، وموت الإنسان متى يكون وأين يكون . فهذه خمسة أشياء سماها الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام بمفاتيح الغيب حيث قال جل وعلا : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مفاتح الغيب خمس وتلا « إن الله عنده علم الساعة » الآية . وروى نحوه عن ابن مسعود، وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً .

« والمفاتح » إما جمع مفتح بالفتح ، وهو المخزن ، كما أخرجه ابن جرير

---

(١) سميت هذا الجزء بـ « كشف الريب عن مفاتيح الغيب» ليسهل نشره مستقلا أيضاً (مؤلف) .

وابن أبى حاتم عن السدى ؛ وإما جمع مفتح بالكسر وهو كمفتاح آلة الفتح ، والكلام على الاستعارة حيث شبه الغيب بالأشياء المستوثق منها بالأقفال وأثبت له المفاتيح تخييلا .

ثم ههنا أمور مهمة يجب الإطلاع عليها:

التخصيص بالخمس ليس للحصر

الأول : وجه التخصيص بهذه الخمس، فإن الله سبحانه وتعالى هو المختص بعلم الغيب كله ، كما فصلنا القول فيه فى سورة النمل ، فماذا لاختصاص بهذه الخمس ؟ فاعلم أن جمهور المفسرين والمحققين من أهل العلم على أن هذا ليس بتخصيص بل من قبيل التمثيل، والمراد به علم الغيب مطلقاً . قال فى الروح من الأنعام : ولعل الحمل على الاستغراق أولى ، وما فى الأخبار ـ أى من تخصيص الخمس ـ يحمل على بيان البعض المهم ، لا على دعوى الحصر ، إذ لا شبهة أن ماعدا الخمس من المغيبات لا يعلمه أيضاً إلا الله سبحانه وتعالى ـ انتهى . وفيه أيضاً من لقمان : والذى ينبغى أن يعلم أن كل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل وليس المغيبات محصورة بهذا الخمس ؛ وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها ، أو لأنها كثيراً ما تشتاق النفوس إلى العلم بها . وقال القسطلانى : ذكر صلى الله عليه وسلم خمساً وإن كان الغيب لا يتناهى ؛ لأن العدد لاينفى زائداً عليه ، ولأن هذه الخمسة هى التى كانوا يدعون علمها ـ انتهى (روح بلفظه)

وفى التفسير الأحمدى : فإن قلت : فما فائدة ذكر الخمسة ؟ لأن جميع المغيبات كذلك . قلت : فائدته أن هذه الخمسة معظم الغيوبات ، لأنها مفاتحها انتهى . وبمثله أفاد شيخنا أشرف المشايخ فى بيان القرآن ، وإليه ذهب شيخنا العثمانى فى حواشيه على القرآن العظيم . وهو الذى يطمئن إليه النفس .

وما رواه ابن كثير عن قتادة «أنها أشياء، استأثر الله بهن ؛ فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلا » الحديث . وما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أوتيت مفاتيح كل شئ إلا الخمس » وكذلك رواه أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال عبد الله : « أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شئ غير خمس » الحديث . كذا فى ابن كثير (٣ : ٤٥٤) .

فهذا كله محمول على أن الله سبحانه وتعالى لم يعط أحداً من الملائكة والرسل علما كلياً محيطاً قطعياً بهذه الخمس كغيرها من الغيوب ، وتخصيص الذكر بالخمسة فى الحديث كتخصيصه فى الآية ؛ فإنه إن لم يحمل على هذا ناقضه كثير من الروايات الواردة عن الأنبياء والأولياء التى فيها الإخبار بأشياء من هذه الخمسة كإخبارهم عن غيرها من المغيبات .

تنبيه : فعلم أن تخصيص الذكر بالخمس فى الآية ومثله فى الأحاديث المذكورة ليس للحصر والقصر فيها ، بل الحكم عام شامل لجميع المغيبات.

فائدة التخصيص بالخمس فى الذكر

وفائدة التخصيص الذكرى إما لأن السؤال وقع عن هذه الخمس فأخرج الجواب على طبق السؤال؛ وإما لأن هذه لخمسة هى الأمور المهمة التى تشتاق النفوس إلى علمها ، وتمس الحاجات إلى العلم بها ؛ وإما لأنها هى التى كانوا يدعون العلم بها بالنجوم والكهانة وأمثالها؛ وإما لأن هذه الخمسة هى أصول جميع المغيبات . وينطوى فيها عامة الغيوب كما ذكر بعض تفصيله شيخنا العثمانى فى حواشيه ، ويؤيده تسميتها فى القرآن بمفاتيح الغيب، ومثله على لسان النبوة كما مر فى الأحاديث.

: : :

الجواب عما يروى عن بعض الأولياء وما يحكى عن الأطباء والمنجمين فى الأخبار فى هذا الباب

الثانى : قد يشتبه الأمر على غير المحقق مما يحكى عن بعض الأولياء من الأخبار بنزول الغيث ، أو بتعيين ما فى الأرحام، أو عن كسب أحد غداً ، أو موت أحد فى وقت كذا فى أرض كذا، ثم بان الأمر على طبق ما قال . ومثله ما يحكى عن بعض المنجمين والأطباء، وما يشاهد اليوم فى سائر البلاد من الطبيعيين من فلاسفة العصر يخبرون بنزول الغيث فى بلد كذا فى مقدار كذا ؛ وربما يظهر صدقهم حقيقة أو تقريباً فيظن من لا خبرة له أنها يعارض هذا النص .

والجواب عنه مر تفصيله فى بحث علم الغيب فى سورة النمل: من أن أكثر هذه الأخبار ليس من قبيل الغيب المصطلح ، فإنها أكثرها مبنية على أمارات طبعية أو نجومية وأمثالها ، فكان علم استدلال لا علم غيب ؛ وبعضها مبنية على الإعلام من الله سبحانه وتعالى بالوحى فى حق الأنبياء عليهم السلام ، وبالإلهام فى حق الأولياء رضى الله عنهم ، فكان علما بتعليم لا علم غيب ؛ والمنفى فى الآية هو علم الغيب من هذه الأشياء لا مطلق العلم ، وإن كان مطلق العلم أيضاً منفياً فى أمر الساعة ، بدلائل أخرى . كذا فى بيان القرآن .

وأيضاً فهذا كله سوى ما نزل بـه الوحى ظـــن وتخمين ، لا يسمى فى الاصطلاح علماً .

وأيضاً كل ما يروى من الأخبار أو يحكى من الحكايات فهى جزئيات من هذه الخمس ، والمختص بذاته جل وعلا هو العلم الكلى المحيط الدائم القطعى بهذه الخمسة وما سواها من المغيبات ، فاطلاع الله سبحانه وتعالى بعض أوليائه على بعض من جزئياته أو إطلاعه تعالى أرباب الصناعات من النجوم والطب وأمثالها بما خلق لهم من الأمارات والأسباب على جزئيات من هذه الخمس وما سوا ها لايناقض مضمون الآية فى شئ .

الثالث : فى أسلوب الكلام ، فإن مفاد الكلام على ما مر من تفسيره بالحديث اختصاصه سبحانه وتعالى بعلم هذه الخمس ونفيه عمن سواه ، ولكن وقع التفنن فى أسلوب الكلام . فاقتصر فى أمر الساعة على إثبات علمه لله تبارك وتعالى قصراً من دون تصريح بالنفى عمن سواه ، واقتصر فى الغيث بإسناد فعله إليه عز وجل من دون تصريح بالعلم ولا بالقصر ، ولا نفى عمن عداه ، وذكره فى ما فى الأرحام علمه من دون تصريح بحرف القصر والحصر ولا نفى عمن عداه، وذكر فى كسب الغد نفيه عمن سواه، وكذلك فى أى أرض تموت . فما الحكمة فى هذا التغيير من أسلوب إلى أسلوب ؟

وقد أجاد شيخنا أشرف المشايخ بيانه فى بيان القرآن فنقتصر بترجمته من الهندية إلى العربية حيث قال بعد ذكره بما ذكرنا آنفاً فى البحث الأول والثانى والثالث : ذكر فى قوله تعالى : « ينزل الغيث إسناد تنزيل الغيث إليه تعالى لاعلمه ، وذلك لأنه علم من قرينة المقام أن المقصود منه هو إسناد العلم إليه ، والنكتة فى هذا التعبير أنه يتعلق بتنزيل الغيث منافع غير محصورة للعباد، ولو قيل: « يعلم تنزيل الغيث » لم تقع الإشارة إلى هذا .

الرابع : كيف استدل بعلم ما فى الأرحام أو الغيث على اختصاصه به سبحانه وتعالى ؟ الجواب أنه بقرينة المقام حصل معنى الاختصاص .

الخامس : ما الحكمة فى تعبير أمر الساعة بالجملة الإسمية و« ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام » بالجملة الفعلية ؟ فالجواب أن الساعة أمر متعين ، ونزول الغيث والتكون فى الأرحام أمور متجددة ، فأشير بالجملة الفعلية إلى هذا التجدد.

السادس : قد ذكر فى إثبات العلم له سبحانه صيغة العلم ، وفى نفيه عمن سواه صيغة الدراية فقال : « وما تدرى نفس » الآية فما الحكمة فيه ؟ فالجواب أن الدراية يطلق على علم مكتسب بنوع حيلة وسعى ، فكان فيه إشارة إلى أن علم الغيب لايستطاع بالحيل والتدابير أيضاً .

السابع : تخصيص مكسوب نفسه فى قوله تعالى : « ماذا تكسب غداً » إشارة إلى نفى العلم عن مكسوب غيره بالأولى .

الثامن : قد ذكر فى قوله تعالى : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » نفى علمه عن مكان موته فقط وإن كان زمان موته أيضاً غير معلوم له ، فالجواب أن المكان ربما يكون مما سكنه وشاهده ، ولا أقل من أن يكون موجوداً فى الحال ، ولا كذلك الزمان المستقبل ، فإنه غير مشاهد ولا موجود فى الحال ، فنفى العلم عنه أظهر وأظهر .

التاسع : المقصود من هذا الكلام بيان الاختصاص به تعالى فى الأشياء الخمس ، ولكن هذا الاختصاص ذكر فى الجمل الثلاثة ، الأولى بإثبات علمه تعالى بها ، وفى الجملتين الأخيرتين بنفيه عن الخلق ، فما الحكمة فى ذلك ؟ فالجواب أن الكسب والموت من أفعال العباد وأحوالهم ، فكان علمها أقرب إليه بخلاف الثلاثة الأولى ، فإنها أحوال أشياء غيرهم فكان علمها أبعد عنه ، فلما كان فى الأقرب احتمال العلم صرح فيه بالنفى ، وكان الانتفاء فى الأبعد أظهر فاكتفى على إثباته للحق جل وعلا .

العاشر : ورد فى الحديث : « مفاتيح الغيب خمس » فالمراد فيه التمثيل فلايعارض ما قلنا من أن المراد العموم - انتهى .

فائدة : أفاد شيخنا العثمانى فى حواشيه على القرآن العظيم : « إن الغيب ينقسم على قسمين : أحكام غيبية ، وأكوان غيبية ، ثم الأكوان منها كلياتها ومنها جزئياتها ؛ فالأحكام الغيبية قد اطلع الله سبحانه وتعالى عليها أنبيائه ورسله ، وإليه أشار فى قوله : « فلايظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » و الأكوان الغيبية فالجزئيات منها قد اطلع الله سبحانه وتعالى بما شاء منها من شاء من خلقه ، والكليات منها لم يطلع عليها أحداً من خلقه . فالغيب كله مخصوص بالله تبارك وتعالى بمعنى أنه لا يدركه أحد إلا بإعلامه . والغيب بمعنى العلم الكلى

المحيط مخصوص بالله تبارك وتعالى بحيث لا يمكن إدراكه للخلق كائناً من كان ، وكيفما وأينما كان » - انتهى ملخصاً .

وأيضاً دل قوله تعالى : « ويعلم ما فى الأرحام » كما ذكر الجصاص على أن حقيقة وجود الحمل غير معلومة عندنا ، وإن كان قد يغلب على الظن وجوده ، وهذا يوجب أن يكون ما فى حمل امرأته من نفسه غير قاذف لها ، وقد بينا ذلك فيما سلف - انتهى .

وبهذا تم بحمد الله سبحانه وتعالى سورة لقمان ، وذلك لثلاث من صفر المظفر سنة ثلاث وستين بعد ثلاث مائة وألف (١٣٦٣) والحمد لله أولا و آخراً وظاهراً وباطناً .

— • —